June 2022

Vol 4 Issue 2

The Prohibition: Reality and Future Prospects or the first Educational System

Dr. 'Ahmad Eali Wulid 'Ahmad 'Abatah

www.nice4evare90@gmail.com

Issn print: 2710-3005. Issn online: 2706 – 8455, Impact Factor: 1.705, Orcid: 000-0003-Doi 10.5281/zenodo.10679515, PP 55-70.

Abstract: The mahjara is considered the traditional institution of education in Mauritania, the country of Chinguetti, which was able to pass through modern history by preserving its approach, method and performance that enabled the people to overcome difficulties and even spread Islam in the region and supply its outputs to remote Arab Islamic countries. The nomadic Bedouins in the land of Chinguetti adopted a unique method of disseminating knowledge and academic achievement through a private institution at the end of the Middle Ages that relied mainly on a sheikh who provided unlimited free teaching in a purely Bedouin environment based on solitude and travel in search of pasture. He received students from all walks of life, explained the texts, consolidated knowledge, and helped spread knowledge in areas described as being between two oceans (an ocean of water and an ocean of sand).

The Shanqeetiyya Mobile Mahbar was unique in its memorization, encyclopedism, and clinging to the concerns of society. It was like a strong pillar in dark times, as was the case during colonialism, with its resistance and confrontation of the coloniser. It was also a source of spreading Islam in neighboring countries, and it received students who later became bearers of the banner of Islam in Sudan and even in Africa. . Moreover, this distinguished educational system was able to graduate scholars who were on par with their peers in the Islamic East and left a living legacy of knowledge production, not to mention rich libraries in ancient cities and metropolises, most of whose contents are still being processed to provide the opportunity to benefit from them.

Keywords: The prohibition, the first educational system.

المحظرة: الواقع و آفاق المستقبل أو النظام التربوي الأول

الملخص: تعتبر المحظرة المؤسسة التقليدية للتعليم في موريتانيا، بلاد شنقيط، التي استطاعت أن تعبر التاريـخ الحديث محافظة على منهجها و منهاجها و أداءها الذي مكن الأهالي من اجتياز الصعاب بل نشر الإسلام في المنطقة و توريد مخرجاتها إلى بلدان عربية إسلامية نائية. فاعتمد البدو الرحل في بلاد شنقيط أسلوبا فريدا في بث المعرفة و التحصيل الدراسي من خلال مؤسسة أهلية في نهاية القرون الوسطى تعتمد أساسا على شيخ يقوم بالتدريس المجاني اللامحدود في بيئة بدوية خالصة قوامها الحل و الترحال بحثا عن الكلأ. فاستقبل الطلاب من كل فج و شرح المتون و رسخ المعارف و ساعد في نشر المعرفة في ربوع توصف بكونها بين محيطين (محيط من الماء و محيط من الرمال).
فانفردت المحظرة الشنقيطية المتنقلة بالحفظ و الموسوعية و التشبث بهموم المجتمع فكانت كالركن المنيع في الأوقات الحالكة كما هو الحال إبان الاستعمار بممانعتها و مواجهتها للمستعمر و كذلك كانت الرافد في نشر الإسلام في البلاد المجاورة فاستقبلت طلبة صاروا فيما بعد حملة لواء الإسلام في السودان و حتى في إفريقيا. ثم إن هذا النظام التربوي المميز استطاع تخريـج علماء قارعوا أترابهم في المشرق الإسلامي و تركوا موروثا حيا من الإنتاج المعرفي ناهيك عن مكتبات زاخرة في مدن و حواضر عتيقة ما زال أغلب مكنوناتها قيد المعالجة لإتاحة فرصة الاستفادة منها.

الكلمات المفتاحية: المحظرة، النظام التربوي الأول.

المقدمة:

ظلت المحظرة الموريتانية التقليدية، مؤسسة التعليم الأهلي، طيلة قرون عديدة حاملة مشعل التربية و التعليم الأهلي بشكل تلقائي مجاني و فعال بحيث أخرجت علماء و مدرسين و دعاة ساهموا في نشر الإسلام في هذه الربوع بالإضافة إلى مواقف مهمة من بينها جملة من التحديات كان منها مجابهة الاستعمار.

و المحظرة مؤسسة فريدة من نوعها بمستوياتها العلمية و استعداد القائمين عليها و بمناهجها و أساليها. يدير هذه المؤسسة الأهلية بشكل تطوعي شيخ متمرس في العلوم الشرعية أخذ على نفسه تعليم أهل الحي و في أتم الاستعداد لاستقبال وافدين من طلبة العلم. يدرس هذا الشيخ وفق المنهاج التقليدي الذي يقوم أساسا على الحفظ و الاستظهار في بيئة تشح فيها المصادر المكتوبة لانعدام الورق وكثرة الترحال و هشاشة المساكن.

و من المهم أن نتعرف على واقع هذه المؤسسة من حيث الأداء و الفاعلية و الآفاق المستقبلية. فكيف يتم التدريس؟ و ما هي المناهج المعتمدة؟ و ما هو الأسلوب المتبع في الدراسة؟ و ما هي قابلية المؤسسة للتطوير؟

I. تعريف المحظرة

المحظرة لغة هي تصحيف لكلمة محضرة[١] التي تم اشتقاقها من كلمة حضر، وحضر تطلق في اللغة العربية على القيم على الماء[٢]. كما أنها عرفت عند العرب كذلك "بالحضور الى المياه، والحاضرون هم الذين يرجعون الى المحاضر في القيظ وينزلون على الماء"[٣]. وقد تكون مشتقة من الحظيرة، وهي : حيطان يعدها أهل البادية من جذوع الاشجار ليحيطوا بها منازلهم، ومرابط أغنامهم وإبلهم؛ لتقيها البرد والحر. و المحتظر[٤]: هو الذي يحمل الحظيرة. وفي الحديث أن امرأة أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت :يا نبي الله ادعو الله لي، فلقد دفنت ثلاثة من البنين، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم "لقد احتظرت بحظار شديد من النار[٥]. أما من حيث الاصطلاح فقد عرفها كثير من الكتاب تعريفات لا تتفاوت كثيرا في المضمون وإن تفاوتت في الشكل، ومن هذه التعريفات :

١- المحظرة هي المدرسة الأولى التي عرفتها شنقيط – موريتانيا لاحقا- والتي تعود البذرة الأولى لها إلى دولة المرابطين في بداية القرن ١١ الميلادي وقد أطلق لفظ المحظرة على كل جهاز تعليمي يشمل كل لوازم التعليم التقليدي ويعطي نوعية محددة للمواد المدرسة بحيث لا تخرج عن نطاق الدين الاسلامي واللغة العربية[٦].

٢- هي أي قرية أو حي من الأحياء البدوية يعلن فيه أحد الرجال المشهورين بالعلم وحفظ القرآن استعداده لتعليم العلم ولتحفيظ القرآن، لا فرق في ذلك بين الأحياء البدوية المتنقلة أو القارة[٧].

---

[1] - أحمد الونشريسي: المعيار والمعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل افريقية والأندلس والمغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠١هـ/١٩٨١ ،ج٧، ص١٥٦

[2] - انظر تاج العروس، ج٣، دار البيان، بيروت، ١٤٨٠. حيث أورد قول لبيد: فالواديان وكل مغنا منهم وعلى المياه محاضر وخيام.

[3] - انظر في ذلك: ابن منظور، لسان العرب، المجلد ١، بيروت ١٣٨٦، ص٥٨٦.

[4] - الامام أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، المجلد الرابع مادة حظر، ص٢٠٣

[5] - صحيح مسلم، المجلد الرابع، ص٢٠٣٠ الطبعة الاولى ١٤١٢هـ- ١٩٩١- دار الحديث القاهرة

[6] - محمد سالم ولد عدود: تعليق على محاضرة للمؤرخ المختار ولد حامد عن "دور المحاظر في نشر الدعوة" ، مرقون، د.ت، دار الثقافة.

[7] - محمد محفوظ بن أحمد، مكانة أصول الفقه في الثقافة المحظرية الموريتانية، ط٢، المعهد العالي للدراسات والبحوث الاسلامية، نواكشوط ٢٠٠١، ص٦٦.

٣- مؤسسة تعليمية أخلاقية ترتكز على استاذ واحد وتعتمد الحفظ "كأهم مميزات أسلوبها المنهجي" وطواعية ممارسة وتستقبل كل من يرد عليها من جميع المستويات الثقافية والفئات العمرية والجنسية والاجتماعية وتعطي الحرية للطلاب وتعتمد على تلقي العلم من أفواه الشيوخ كما كانت عليه الحياة العلمية في فجر الاسلام[٨].

٤- جامعة شعبية تستقبل كل من يرد عليها من جميع المستويات الثقافية والفئات العمرية والجنسية والاجتماعية تستقبل المبتدئ كما تستقبل العالم فتجدد له معارفه وتوسعها وتعمقها، ويرتادها الطفل والشيخ والمرأة والفقير والموسر، تبذل لكل طالب ما يرد من ضروب المعرفة حسب مستواه الثقافي وهوايته وطاقة استيعابه. وهي لا تسد أبوابها، وإن عطلت الدراسة أياما معدودات، بل تستمر في العطاء على مدار السنين و لا ترد طالبا لعدم وجود مقاعد شاغرة، ولا تغلق أبوابها لقلة عدد الطلاب المنتسبين، فلا حد أدنى ولا حد أعلى في العدد الذي يقوم به نظام المحظرة، بل ينقص العدد أو يزيد تبعا لصيت الشيخ ومدى تفرغه ويختلف باختلاف الفترات وليس للطلبة سجل جامع يضبط أسماءهم ويحصر أعدادهم ولكن هناك مؤشرات دالة تستنتج منها أعداد الطلبة ولو على نحو تقريبي. من هذه المؤشرات جدول استعمال الزمن عند شيخ المحظرة، فكلما كثر عدد الطلبة اضطر عميد الجامعة البدوية لصرف وقت أطول في تعليمهم[٩].

٥- المحظرة عبارة عن مجمع تعليمي ثقافي يبدأ من الروضة حتى درجة التخصص كما يرى محمد سالم ولد عدود[١٠].

تتفق هذه التعريفات في كون المحظرة مكان للدراسة وأنها ذات صبغة وقفية من حيث أن القيم عليها يعمل بدافع التطوع وأنها تستقبل كل المستويات. وانطلاقا من هذه المعطيات فإننا نرى أن المحظرة : "هي تلك المؤسسة العلمية التي حلت لاحقا محل الرباط والزاوية في العهد المرابطي واضطلعت بدور التربية الأهلية وكونت بذلك جامعات متنقلة حسب انتجاع السكان وأفرزت كوكبة من العلماء والمرشدين دافعوا عن الهوية العربية الاسلامية في وجه الاستعمار وعرفوا بالعلم في شتى أنحاء البلاد العربية الاسلامية والبلدان المتاخمة لها".

---

[8] - اباه بن محمد عالي بن نعم العبد المجلسي الشنقيطي، الجليس المؤنس في تاريخ وأنساب المجلس، تقنية المعلومات والنشر، انواكشوط، ط الاولى ،٢٠١١، ج٢، ص٥٥٤

[9] - LE COURTOIS , Etude expérimentale sur l'enseignement traditionnel en Mauritanie , p31

[10] - محمد سالم ولد عدود، مقابلة أجرتها معه قناة الجزيرة سنة ٢٠٠١، نشرت على موقع (أهل الحديث كوم)

II- نشأة المحظرة

لقد عرفت هذه البلاد المحاظر عندما أسس علماء معروفون[11] قرى سكنية تطورت فيما بعد إلى مراكز لانطلاق القوافل ولنشر العلم. ولما كان الطابع المميز للسكان هو الترحال فإن مؤسساتهم التعليمية رافقتهم في هذا المنحى ولا أدل على ذلك مما قاله العالم الشهير المختار ولد بون معرفا بذويه والتصاق العلم والتعلم بطبيعة السكان[12].

وقد مرت المحظرة بتطور ملموس حيث انتقلت من كتاتيب للتهجي وحفظ القرءان الكريم إلى مؤسسات ذات طابع جامعي تدرس مختلف العلوم ويمكن تقسيم المحاظر حسب المقررات الدراسية إلى ثلاثة أنواع:

١- محظرة عامة أو شاملة بشيخ واحد وهي محظرة يتولى التدريس فيها شيخ واحد يدرس كل العلوم وهو المعروف ب- امرابط كدم- وهو شيخ أوصله مستواه العلمي الى درجة لم يعد يرد طالب علم.

٢- محظرة عامة أوشاملة بعدة شيوخ : وهي محظرة يوجد بها عدة علماء يدرس كل واحد منهم فنا واحدا مع قدرته على تدريس غيره.

٣- محظرة متخصصة : وهي التي تدرس فنا واحدا كالفقه مثلا أو النحو الخ،

III- سمات المحظرة الموريتانية

عرفنا فيما سبق أن المحظرة تمثل نموذجا فريدا للتعليم الاسلامي والعربي عرفته هذه البلاد يحمل بعض خصائص النظام التربوي لبعض المدارس في الاقطار الاسلامية وله مميزات وخصائص نذكر منها:

١- أنها جامعة١٣: فهي تقدم للطالب كل ما يرغب فيه من علوم قرآنية وعربية.

٢- أنها شعبية١٤: كما يعبر عن ذلك لكرتوا١٥ تستقبل كل الراغبين في الدراسة ،و

---

11 - نقصد بهذا الصدد علماء من أمثال الإمام عبد المؤمن مؤسس مدينة تيشيت والإمام الحاج عثمان مؤسس مدينة وادان انظر في ذلك ولد حامد، حياة موريتانيا، ج٣، ص٢.

يقول ولد بون في هذا الشأن: ونحن ركب من الأشراف منتظم أجل ذا الخلق قدرا دون أدنانا

قد اتخذنا ظهور العيس مدرسة بها نبين ديـــن الله تبيانـــا

انظر في ذلك ولد أحمد بن الأمين الشنقيطي، الوسيط.

12 - الخليل النحوي، بلاد شنقيط المنارة والرباط عرض للحياة العلمية

13 - الخليل النحوي، بلاد شنقيط المنارة والرباط عرض للحياة العلمية و الإشعاع الثقافي والجهاد الديني من خلال الجامعات البدوية (المحاظر)، تونس، ١٩٨٧م، ص٧٨

14 - محمد الصوفي ولد محمد الأمين: المحاظر الموريتانية وآثارها التربوية في المجتمع الموريتاني، رسالة ماجستير، جامعة الملك سعود، ١٤٠٦هـ

15 - خبير اليونيسكو من ١٩٧٧-١٩٨٤م

التحصيل، بغض النظر عن جنسه أو عمره ،أو مستواه المادي ،أو فئته الاجتماعية، أو مستواه الثقافي ،فللجميع أماكن في المحظرة.

٣- البساطة في التعامل مع الأمور :فلا توجد بنية إدارية، ولا دواوين لتسجيل الأسماء والوضعيات، ولا رقابة ولا مجلس تأديب.

٤- البداوة والترحال : فلمحظرة مؤسسة بدوية، وقد ذكرنا سابقا أنها نشأت في الحواضر إلا أنها ازدهرت وانتشرت في البادية، يقول الخليل النحوي: "ازدهرت المحاظر، وانتشرت، وتبلورت شخصيتها في رحاب البادية لا في المدن"، ويؤكد الشيخ محمد اليد الينفس الفكرة بل ويزيد عليها مشتكيا: لا يوجد مداد إلا مداد صبيان المكتب والترثوث،١٦ ولا جمع غالبا إلا بالليل؛ لاستغراق النهار بالترحال الحثيث.١٧كما يؤكد الفكرة أحمد بن ألمين في حديثه عن كيفية إلقاء الدرس في المحاظر قائلا: لا ضابط للهيئة التي يلقي عليها المدرس عندهم، فتراه مرة يدرس ماشيا مسرعا، ومرة جالسا في بيته، ومرة في المسجد، ومنهم من يدرس في أثناء الارتحال من جهة إلى أخرى، سواء كان ماشيا، أو راكبا، وقد يكون راكبا، والطلبة يمشون على أقدامهم في ناحيته.١٨

٥- حرية الاختيار١٩: فالطالب في المحظرة هو الذي يختار مادته الدراسية، والقدر الذي سيدرسه يوميا، كما يختار الشيخ الذي سيدرسه، وقد لعبت هذه الحرية دورا كبيرا في إقبال الطلاب على التحصيل، حيث أن الطالب يتمكن من تحصيل رغبته في الوقت الذي يريد وعلى من يريد.

٦- الصبغة التلقينية: بدأت المحظرة التلقينية ولا تزال، رغم انتشار المخطوطات والورق، ورغم التطور العلمي، إلا أنه كثيرا ما ردد الشناقطة (العلم من أفواه الرجال، لا من بطون الكتب)٢٠، ويستشهدون بأبيات أبي حيان في ابن مالك:

يظن الغمر أن الكتب تهدي أخـا فهـم لإدراك العلــوم
وما يدري الجهول بأن فيها غوامض حيرت عقل الفهيـم
إذا رمت العلوم بغير شيخ ضللت عن الصراط المستقيم

16- الترثوث : نبات صحراوي يستعمل كمداد لأنه يشتمل على مادة داكنة في الاحمرار

17- الشيخ محمد اليدالي، فرائد الفوائت، ص٥ مخطوط بملكنا.

18- أحمد بن الامين الشنقيطي، مصدر سبق ذكره، ص٥١٩

19- المحظرة نشأتها وأهميتها، إعداد مجموعة من الطلاب، المدرسة العليا للتعليم ،مرقون، ١٩٩٩،ص٨٠

20- مقابلة مع محمد يحي ولد سيد أحمد، في منزله ٢٣-١٢-٢٠١١

وتلتبس الأمور عليك حتى تكون أضل من توما الحكيم[٢١]

٧- الطابع الفردي : في طرفي العملية التربوية، حيث إنه في العادة يدير حلقات الدرس شيخ واحد، تضلع في العلوم جميعا، أو تخصص في بعضها، ومن الطرف الآخر، فالقاعدة العامة أن كل طالب يدرس موضوعا منفردا، وأحيانا تشترك مجموعة في دراسة متن واحد، فتتعاون على التكرار والمراجعة، فيكون ذلك استثناء من القاعدة (الدولة).

IV- المناهج الدراسية وطرق التدريس

تتعلق المناهج الدراسية هنا بمجمل المقررات في مختلف المحاظر الشنقيطية التي سنحاول التطرق إليها بشيء من التفصيل قبل أن نبين الأسس التي انتهجها الشيوخ في فنون التدريس وإلقاء الدروس. فقد تميزت المحظرة الموريتانية بوجود مستويات عدة. فبالنسبة للمبتدئين كان الأمر من اختصاص الأمهات وبعض مدرسي الحي. ويتعلق الامر هنا بالتهجي أساسا وحفظ ما تيسر من القرءان.

أما في المستويات الأعلى فإن حفظ وتجويد القرءان والشروع في دراسة العلم كان يتطلب الرجوع إلى محاظر معروفة ودراسة متون مقررة لهذا الشأن.

لقد كانت مقررات التدريس تعتمد أساسا في هذا السياق على رافدين إثنين أولهما رافد مشرقي والثاني رافد مغربي وأندلسي بالإضافة طبعا إلى رافد محلي تجلى في تآليف تميزت بطابع الاختصار والنظم عرفت بالطرر و الحواشي[٢٢]. فكان العلماء يقومون باستجلاب نفائس الكتب من مختلف الأمصار الاسلامية وهو ما جعلهم على اطلاع دائم بحركة التأليف والنشر رغم انعدام وسائل الاتصال ورغم الشقة في الأسفار[٢٣].

وبطبيعة الحال فلم يكن للمحظرة منهاج ثابت، يلزم الأستاذ أو الطلبة، ولكن كانت لديها علوم، وفنون، هي مجمل دراستهم. وقد تختلف هذه العلوم من إقليم إلى إقليم، ومن محظرة إلى محظرة. كما أن القوم كانوا يعطون للتخصص حقه، ويعترفون بالقيمة العلمية لمحظرة ما عندما تتميز في فن من الفنون. ويلاحظ أن المتون المدرسة تتدرج حسب

---

[٢١]- فيلسوف كثيرا ما يتندر الأدباء العرب والمسلمون بغباوته وضلاله، وفيه يقول الشاعر:

قال حمار الحكيم يوما لو أنصفوني لكنت أركب

لأنني جاهل بسيـــط وصاحبي جاهل مركــب

[٢٢]- مثل احمرار الألفية لابن بون و اكحلالها ....إلخ

[٢٣]- من الذين رحلوا لاستجلاب الكتب: ولد رازكه العلوي، ولد بون الجكني، لمجيدري اليعقوبي، حماد بن ألمين المجلسي، آب ولد اخطورالجكني، باباه ولد ابت المجلسي، وغيرهم كثير لا يمكن حصره.

قدرات الطلاب ومستوياتهم بشكل تدريجي، يحصل فيه التوزيـع التلقائي للمراحل الدراسية من مستوى التهجي إلى المستوى الجامعي. والحرية الممنوحة للطالب في اختيار مادته الدراسية لا تعني استقلاليته عن أستاذه، وغناه عن توجيهه إياه من متن إلى متن ومن تخصص إلى تخصص. فتراهم يرتبون هذه المتون ترتيبا يراعي نمو الطالب العقلي وقدرات المتلقي. ففي الفقه مثلا: يبدأ الطالب أحيانا بمختصر الأخضري ثم ابن عاشر، فرسالة أبن أبي زيد القيرواني ... لينتهي إلى مختصر خليل بن اسحاق المالكي، الذي يعتبر مقرر المرحلة الأكاديمية عندهم. وفي النحو يبدأ الطالب بالمقدمة الأجرومية، ثم الألفية، فالكافية؛ لهذا يستنكر أحدهم الإخلال بالمنهجية المحظرية الأصلية، مستشهدا بقوله:

علامة الجهل بهذا الجيل ترك الرسالة الى خليل
وترك الأجرومية للألفية وترك الألفية للكافيـة
إن خليلا صار مثل الشم يشمه كل قليل الفهـم

وترد في هذا الشأن طرائف نذكر منها: أن أحد الطلاب قدم على الشيخ يريد دراسة الفقه، فسأله الشيخ : أي متن تريد قراءته؟ فرد عليه بأنه يريد دراسة مختصر خليل، سأله الشيخ: هل درست الأخضري أو ابن عاشر أو الرسالة؟ فرد الطالب: لا، أريد أن أبدأ بالمختصر فقط، فسكت عنه الشيخ ... وبعد لحظات طلبه الشيخ أن يصطحبه إلى غابة مجاورة للحي، واصطحب معه فأسا، ولما وصلا الغابة أمر الشيخ الطالب بقطع شجرة تدلت أغصانها، حتى لم يعد جذعها مرئيا، فبدأ الطالب بقطع الأغصان المتدلية ليتمكن من الوصول الى الجذع، فنهره الشيخ قائلا: إنما طلبت منك قطع الجذع دون الأغصان، فأجابه الطالب: أنا لا أستطيع الوصول إليه إلا بعد قطع الأغصان، فقال له الشيخ: وكذلك {المختصر}لن تستطيع استيعابه إلا بعد أن تدرس المتون التي سألتك عنها ،فاكتشف الطالب خطأه، وعاد إلى قراءة المتون الآنفة الذكر بعد تيقنه أن التدرج سنة طبيعية.

وقد أبدع الأوائل في ذكر جل مضامين التدريس في إشعارهم وتندرهم على الذين لم يهتموا بالدراسة السائدة والتي سارت محل عادة لا يغفر تركها.

وعلى العموم فسنكتفي هنا بذكر المتون الأكثر تداولا والأوسع انتشارا مصنفة حسب مجالاتها[٢٤]:

[٢٤]- البتول عبد الحي: بحث ميداني بعنوان المحظرة في مواجهة الزحف، شمل ٤٠ محظرة في نواكشوط، اترارزة، كوركول، كيدماغه ٢٠٠٣/ مرقون ص١٤

١- الشريعة الإسلامية:

- القرآن وعلومه: المصحف الشريف برواية نافع عن طريق تلميذيه ورش وقالون.
- التفسير: الجلالين وحواشيه، ابن كثير، الطبري، القرطبي.
- في علم المقرأ: الدرر اللوامع على مقرإ الإمام نافع لإبن بري، الغرر السواطع على الدرر اللوامع في القراءات السبع لعلي زين العابدين الشنقيطي، الشاطبية في القراءات السبع لأبي القاسم الشاطبي، مقدمة ابن الجزري الدمشقي.
- في الحديث ومصطلحه: موطأ الإمام مالك، الصحاح الستة، ألفية زين الدين العراقي، طلعة الأنوار في حديث النبي المختار لسيد عبد الله اين الحاج ابراهيم.
- الفقه وأصوله: مدونة سحنون عن مالك وشروحها وحواشيها نثرا ونظما مثل:
- مختصر خليل بن اسحق المصري، رسالة ابن أبي زيد القيرواني[٢٥]، تحفة بن عاصم في النوازل، نظم المرشد المعين لابن عاشر الجزائري، الأخضري، اللوامع على مختصر خليل ابن اسحق المصري، الكوكب الساطع للسيوطي، جمع الجوامع للسبكي، مراقي السعود لسيدي عبد الله ولد الحاج ابراهيم.
- العقيدة وعلم الكلام: إضاءة الدجنة في اعتقاد أهل السنة للمقري، وسيلة السعادة للمختار بن بونه، نظم الواضح المبين لعبد القادر بن محمد سالم، شرح السنوسية الكبرى لمحمد بن محمد سالم.
- في السيرة: نظم الغزوات لأحمد البدوي المجلسي٢٦، عمود النسب لأحمد البدوي المجلسي، شرح نظم الغزوات وشرح عمود النسب لحماد بن ألمين المجلسي، نظم الشهداء للعلامة محمذ فال ولد متالي التندغي.

٢- علوم اللغة العربية

- اللغة والأدب: المعجم، القاموس المحيط للفيروز أبادي، صحاح الجوهري، مقصورة ابن دريد، المقصور والممدود لابن مالك، المعلقات الست للأعلام للشنتمريوالزوزني، لامية العرب للشنفري، بانت سعاد لكعب بن زهير، ديوان غيلان، ديوان المتنبي، ديوان المعري، مثلث قطرب، مثلث ابن مالك، الشمقمقية،مقامات الحريري، مقامات الهمذاني، مختار الصحاح، لسان العرب لابن

[25] - الناني ولد الحسين : صحراء الملثمين، دراسة في تاريخ موريتانيا وتفاعلها مع محيطها الاجتماعي خلال العصر الوسيط منتصف ق٢هـ/٨م إلى نهاية ٥هـ/١١م ،دار المدار الاسلامي، ٢٠٠٧.

[26] - المختار ولد حامد: حياة موريتانيا- الحياة الثقافية- الدار العربية للكتاب، تونس، ١٩٩٠، ج٢ ،ص ٦ إلى ٨٨.

منظور، النوادر، كتاب الأغاني....

- النحو والصرف: ألفية بن مالك الجياني مع طرة المختار بن بونهالجكني أو بدونها، لامية الأفعال لابن مالك أيضا، ملحة الإعراب، نظم ابن ابه المعروف محليا بعبيد، ألفية جلال الدين السيوطي، اخضرار الحضرمي، احمرار الحسن بن زين القناني على اللامية ....
- كما كان لهم الاهتمام بالعروض والقوافي والبلاغة والمعاني والمنطق والحساب العددي والفلك وعلم الفلك والجغرافيا والطب وخصائص الأشياء والتصوف والآداب الاجتماعية وعلم السر والجدول.

V- المحظرة والمقاومة

أحس الفقهاء والعلماء في بداية القرن التاسع عشر بخطر واستفحال المستعمر الذي يسيطر على حوض النهر فدوت صيحة من التحذير واستنهاض الهمم للاستعداد بكل الوسائل المتاحة، ولم يكن من المجتمع إلا الوقوف وراء فقهائه وشيوخ محاظره داعما لهم ومطبقا تعليماتهم فتمثل رفضهم ومقاومتهم للمستعمر فيما يلي:

١- رفض التعامل مع المستكشفين الفرنسيين:

لعل من أوضح الامثلة في هذا الصدد ما قام به السكان اتجاه الرحالة الفرنسي ريني كايي (René Caillé) ١٨٢٤/١٨٢٥م[٢٧]، أثناء تجواله من منطقة لبراكنة فقد نعتوه بأنه جاسوس ورفضوا التعامل معه وأرادوا قتله غير أنه تحايل عليهم وأدعى أن اسمه عبد الله وأنه ولد في مصر من أسرة عربية، وأن فرنسيين شاركوا في حملة نابليون على مصر عادوا به إلى فرنسا وهو لا يزال إلا أن سيده الفرنسي أرسله في تجارة له على السينغال وبعد نجاحه كافأه بأن أطلق سراحه وأنه مسلم يريد العودة إلى أهله في مصر[٢٨].

كما استطاع المشايخ إفشال مهمة نقيب الأركان العامة المستكشف هينري فينسيان(Henri Vincent) مبعوث الجنرال فيدرب (Faidherbe) على منطقة آدرار الموريتانية بغية جمع المعلومات عن هذه المنطقة والوصول إلى مدنها التاريخية فقد أشاروا على أمير آدرار بقتل هذا الضابط الفرنسي.

٢- جلب الكتب والمتون:

[27] -Paul Dubie, la vie matérielle des maures, mémoire de L'IFAN (Institue Français de l'Afrique Noire), n°23, Dakar, 1953, PP 111-,119-252.

[28] -René Caillé, Voyage Tombouctou, Paris, 1989, Editions la Découverte, P. 27.

حيث عمل العلماء والفقهاء على توفير هذه المصادر شراحا واستنساخا من مختلف الأمصار يقول المستشرق الفرنسي بول دوبي (Paul Dubie). (إن العديد من العلماء الموريتانيين يمتلكون مكتبات غنية، ويقوم بعضهم أحيانا برحلات إلى إفريقيا الشمالية، و إلى الديار المقدسة وهم يتوفرون على مستوى رفيع في مجال العلوم الدينية والشرعية)[٢٩].

- الدراسة أو التدريس في بعض الجامعات العربية (فاس، القرويين، الزيتونة، الأزهر، المسجد النبوي....).

٣- صيانة التراث العربي الاسلامي

ذلك ما شهد به الدكتور محيي الدين صابر في حديثه عن المدن التاريخية والمحاظر الموريتانية، كما يعلق الفرنسي لوكارتو (Le Courtois) مشيدا بنجاح المحظرة في تأدية رسالتها الحضارية مؤكدا بأن المحاظر قد تمكنت على العموم من الصمود في وجه الغزو الثقافي والأجنبي واضطلعت برسالتها المتمثلة في صيانة تراث ثقافي يمثل بالنسبة لها مدعاة فخر واعتزاز[٣٠].

بالإضافة إلى الوظيفة الأساسية للمحظرة المتمثلة في نشر العلوم الإسلامية،وتوطيد الأخلاق الحميدة، وتخريـج أجيال أكفاء سيتمكنون من قيادة مجتمع فقد كانوا أيضا يقومون في نفس الوقت بوظائف: الإمامة، الدعوة، الوعظ، التربية الروحية، القضاء، الإفتاء، كما كان بعضهم قد اضلع بمهام أخرى من قبيل مستشارين لدى الأمراء، كان من بينهم وسطاء في النزاعات وتنصيب الإمام. كل هذا بالإضافة إلى أن مؤسسة المحظرة قد كانت ترعى مصلحة البلد داخليا وخارجيا، كما ترعى علاقاته وهويته، وتعمل على بقائه ولعل ذلك تمثل في:

٤- الاعتزاز بالثقافة والدين

بشهادة أحد الاداريين الفرنسيين في هذا السياق :"لقد وجدنا في موريتانيا شعبا له ماض من الأمجاد والفتوح لم يغب بعد عن ذاكرته، ومؤسسات اجتماعية لا تستطيع تجاهلها، و عن علاقات تضامن وثيق تسود بينهم رغم بداوتهم وتمزقهم"[٣١].

٥- التواصل مع المحيط العربي الاسلامي

---

[٢٩]- André Le Courtois, Etude expérimentale sur l'enseignement islamique, op/cit

[٣٠]- محيي الدين صابر، جريدة الشعب ١٧٠٢ الصادرة في ١٨ فبراير ١٩٨١، نواكشوط

[٣١]- تقرير الحكم الفرنسي العام لغرب افريقيا إلى وزير المستعمرات الفرنسي يتعلق بمهمة كبولاني في منطقة اترارزة بالجنوب الغربي الموريتاني(دجمبر، كانون الاول ١٩٠٢) الارشيف الوطني الموريتاني، نواكشوط، الملف E1/٨

لقد عمل فقهاء وعلماء هذا الإقليم على دوام الاتصال مع أشقائهم العرب والمسلمين، وذلك رغم الصعوبة التي تحيط بهذا التواصل آنذاك، ويمكن أن نسجل ما يلي:

- الحرص على رحلات الحج: حيث دونت تلك الرحلات رغم مخاطر الطريق وشدة المناخ وصعوبة وسائل النقل.

وقد كان أغلب تلك المدن عبارة عن واحات ومحطات تجارية جمعت بالإضافة إلى الأدوار الثقافية أدوارا تجارية، ذلك أنها كانت في طريق مسالك التجارة الصحراوية، وقد عرفت هذه الحواضر فترات ازدهار اقتصادي يفترض أن تكون لها صلة بالنهضة العلمية الأدبية بها (لا بد لكل ثقافة من فائض اقتصادي طالما أنها ثقافة استهلاك بل هي إسراف حسب ابرودل (Braudel)[٣٢]. كذلك ما أشار إليه ابن خلدون حين اعتبر ضعف العمران وانقطاع الدعم عاملا في الركود الثقافي على عهده[٣٣]).

٦- نبذ الحضارة الغربية:

مثلت التعاليم الدينية والأخلاقية التي انبثقت عن المحاظر وانتشر صيتها في عموم القطر وخارجه صمام أمان ضد خطر الهجمة الثقافية الأجنبية واكسبتها مناعة ضد سلبيات تلك الحضارة، وقد شهد الفرنسيون أنفسهم بذلك على لسان رئيس مصلحة التعليم الابتدائي شينيو، في تقرير بتاريـخ فاتح اكتوبر ١٩٣٤ يقول فيه: إن البيظان وقد اعتنقوا الإسلام منذ عدة قرون كان من بينهم وما زال علماء وفقهاء معروفون في جميع البلاد الناطقة بالعربية ونحن نتفهمهم كونهم غيرة على ماضيهم لا ينظرون إلى حضارتنا بحماس، فالثقة بيننا معدومة الآن٣٤.

VI- التحديات التي واجهت المحظرة

لقد اصطدمت المحظرة الموريتانية على مدى تاريخها بكثير من الصعوبات والعراقيل أدت إلى ضعفها وتراجع دورها الفريد وربما قد تضر بها في الصميم وتقضي على فاعليتها إن لم تتدارك ونذكر من أهمها:

١- الجفاف

لقد كان المجتمع يعيش في تلك الصحراء المترامية الأطراف ومع صعوبتها وصعوبة العيش

[32] -Il faut à toute culture en exédenet un surplus économique la culture est consommation voire gaspillage, fernand Braudel, ecrite sur l'histoire, flamation, paris ,1984,p 298

[٣٣]- ابن خلدون ،المقدمة ،دار الجيل، بيروت د.ت.ص.

[٣٤]- التقرير رقم ٧٩٥، بتاريخ ١٩٣٤/١٠/٠١ ،الارشيف الوطني، نواكشوط / موريتانيا، ملف (F2 /44)

فيها إلا أن الموريتانيين بجميع أسمائهم و سماتهم التي عرفوا بها تاريخيا قبل قيام الدولة الحديثة٣٥ استطاعوا التكيف مع هذا الواقع الذي وإن احتسبه غيرهم واقعا صعبا فقد تغنوا به في أشعارهم فصيحها ودارجها باعتزازهم وفخرهم بتلك الربوع وبتلك المناطق التي كان جل عيشهم فيها الماء واللبن واللحم، إلا أن اقتصادا كهذا مرتبط بالتساقطات المطرية، وحين قلت التساقطات جفت الأرض ونفقت الماشية فاضطر السكان إلى النزوح إلى المدن طلبا لولوج النمط الجديد للحياة وسعيا إلى الاستفادة من الحضارة الوافدة التي يعتبر التمدرس من أولويات شروط المشاركة فيها. وطبيعي أن تتأثر المؤسسة المحظرية بهذا التحول الشديد الذي لا مناص منه، وطبيعي أن يتقبل أساتذة هذه المحاظر انفصال طلابهم وتحولهم إلى المدينة، بل وأحيانا يتحول الأستاذ طلبا للتوظيف رفقة طلابه٣٦. وأحيانا يرفض ويصر على البقاء للحفاظ على المحظرة.

٢- المدرسة الحديثة:

استطاعت المحظرة الموريتانية الصمود لعدة قرون حيث كانت الرافد الوحيد لتنشئة الأجيال ومن خلال ذلك استطاعت فرز أجيال كونوا نواة للمجتمع انطلاقا من رؤية دينية تمثلت محدداتها في العقيدة الأشعرية والفقه المالكي. غير أن دخول نمط تربوي جديد على الخط جعل المحظرة عرضة للتفكك والزوال، ولئن كان القيمون عليها إذ ذاك قد ضربوا أروع الأمثلة في الصمود والاستبسال أمام هذا النمط الممنهج[٣٧]، والمدعوم بكل الوسائل والمعدات. إلا أن نفس واضعي هذا المنهج الجديد كان أطول وأشد خصوصا إذا ما اعتبرنا أنهم استطاعوا وفي ظرف وجيز التعرف على خصائص هذا المجتمع من قبل تلك التقارير التي كانت قد أعدت سلفا من قبل المستكشفين والرحالة والحكام، أضف إلى ذلك العامل الاقتصادي والسياسي الذي كان لصالحهم وانعدام بنى تحتية ومؤسسات فكرية ودينية للوقوف في وجوههم.

٣- ضرورة التوظيف

بعيد استقلال الدولة الحديثة أصبحت أمام افتقار شديد يتمثل في ضرورة تكوين كادر بشري باستطاعته إمساك مختلف المرافق الحكومية. وقد استطاعت المحظرة بوصفها المؤسسة

---

[٣٥]- من بين تلك التسميات: بلاد الملثمين، بلاد المغافرة، بلاد السودان ،بلاد التكرور، المنكب البرزخي، شنقيط. وقد اختلف فيه المؤرخون طرائق قددا.

[٣٦]- محمد ولد محمذن :المحاظر الموريتانية(مساهمة في التجديد والتصنيف)، حوليات كلية الآداب والعلوم الانسانية.

[٣٧]- محاظر الكحلاء و الصفراء في لبراكنة على سبيل المثال.

القادرة على توفير هذا الطاقم بداية مد الدولة بمختلف حاجياتها من المصادر البشرية، وقد تزامن ذلك مع شهد قرار تعريب التعليم والإعلام والعدل، فأصبحت الهجرة من المحظرة بشكل مستمر إلى المدن للمشاركة في المسابقات الرسمية لتأمين وظيفة توفير العيش الكريم. وهكذا تأثرت المحظرة التي أصبحت وبشكل مستمر تفقد أعدادا متزايدة قبل أن يتمموا تعليمهم المحظري، وهو ما لا يضمن الدوام والبقاء للمحظرة وينذربخطورة الوضع اذالم يتدارك بسرعة...

٤- النظرة الربحية للتعليم

بعكس ما كان الشيخ يدرس لوجه الله ويؤم الصلاة في الحي ويقضي بين الناس بالعدل في الماضي انقلبت الأمور حينما أصبح التفكير في الثراء السريـع والبحث عن كسب المال.

وقد استفحلت هذه النزعة لتطغى على بعض شيوخ المحاظر إذ أن من بين "عدة ظواهر" ظاهرة مؤسسات الجيب، إذ قلما تدخل على مؤسسة عمومية كانت أو خصوصية إلا وتلقاك أحدهم حاملا مؤسسته طالبا الدعم لإنجاحها ،والمساعدة في الرقي بهذه المؤسسات الوهمية.

٥- و مع ذلك و اعترافا بالجميل يسجل بارتياح صمود بعض شيوخ هذه المحاظر و عدم قبول النزوح إلى المدينة رغم كل الصعاب و المشاكل التي تعرضوا لها لسان حالهم يقول:

- " و اتقوا الله و يعلكم الله"

- " يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا "

و من بين هذه المحاظر التي صمدت نذكر محظرة لفريوة التي تذكر الروايات الشعبية أن محمد عالي ولد نعمة شيخ محظرة هذه القرية الواقعة إلى الجنوب الغربي من العاصمة انواكشوط ذهب حاجا وتفرق سكان لفريوه طلبا للقطع الأرضية في نواكشوط، وعند عودته من الحج تلقاه الأهل في المطار فرفض السلام على أي أحد منهم إلا في لفريوه حفاظا على هذه المحظرة التي صمدت قرونا عدة.

لكن الملاحظة الغالبة على هؤلاء أن القليل منهم من يعرف القراءة والكتابة والتحدث بالفصحى.

6 - وسائل الإعلام

إن من أهم ما ميز المحظرة الموريتانية عن غيرها ومنحها الصدارة والتألق وذيوع الصيت تمثل في شيئين أثنين هما:

- الهدوء والعزلة اللذين ساعدا على الحفظ والاستظهار والاستنباط والترسخ، لكن الثورة التقنية والقفزة النوعية المذهلة ضربت المحظرة في الصميم من خلال التدخل والتداخل في الحياة والانشغالات اليومية فتزايدت الحاجة إلى التواصل وتم القضاء بتاتا على هاذين المعيارين اللذين ميزا المحظرة لقرون عديدة.
- إن هذه التحديات التي وقفت أمام النظام المحظري استطاعت أن تضعه أمام إرهاصات ملزمة لم يكن أمام الكثير من المحاظر إلا الانصياع والرضوخ لها غير أن محاظر لا تزال شامخة، راسية،بفضل الله و هي التي يجد فيها الطالب ذاته و ذات مجتمعه الأصيل تذكره بماضيه و تحافظ على حاضره و مستقبلته في حين نجد أن أكثر محاظر البلاد تم اجتياحها من قبل كثير من هذه التحديات. فهل هي تيارات مؤثرة عابرة تستخدم المجتمع على قدر المسؤولية والتحدي؟ أم هي الضربة القاضية؟

هذه المؤسسة التي عرفت تاريخيا بالتكيف مع الأزمات والأوضاع قد تسلم من هذه التحديات وتحول بنيتها البدوية النشأة إلى المدينة وتؤسس ركنا منيعا تتبوأ فيه المكانة التي كانت أهلا لها في الريف أم أن الهجمة تيار جارف لا قبل لأحد به ولا يمكن السباحة عكسه؟

خلاصة:

تحت الخيام ووسط الصحراء يلقّن علماء وشيوخ علوم اللغة والفقه والحساب طلاباً من مختلف المستويات الدراسية، في حلقات علمية، احتار الباحثون في إيجاد تسمية مناسبة لها، فمنهم من يطلق عليها "جامعات بدوية"، ومنهم من يسمّيها "الكتاتيب القرآنية المتخصصة"، بينما يطلق عليها الموريتانيون اسم "المحاظر".

على مدى قرون، حافظت المحظرة الموريتانية على خصوصيتها التي ميّزت نظام التعليم في البلاد، وحققت ما حققته أهم المدارس والجامعات الإسلامية. وحتى اليوم، ما زالت الأسماء الثقافية المعروفة تدين بالفضل لنشأتها في حضن المحظرة التي حافظت على فصاحة أجيال.

وكانت محاظر شنقيط صرحاً حضارياً ينشر الإسلام واللغة العربية في غرب أفريقيا، ومركزاً للإشعاع الثقافي والحياة العلمية في صحاري موريتانيا. كما استأثرت بأدوار سياسية

واجتماعية هامة عبر مراحل تاريـخ بلاد شنقيط، حيث كانت مركز السلطة السياسية بعد سقوط دولة المرابطين، أواخر القرن الخامس الهجري، واضطلع مشايخها بمهمة فض النزاعات بين القبائل وتنظيم حركة المقاومة ضد الاستعمار.

يؤكد الباحثون أن المحظرة حافظت على الهوية العربية والإسلامية للموريتانيين، في فترة تراجع المد الإسلامي وبداية الاستعمار، حيث دافعت بعلومها عن هوية البلاد ولغتها، وحافظت على الترابط والتجانس بين أفرادها، وهو ما جعل الموريتانيين اليوم أقل تأثراً بلغة وحضارة المستعمر الفرنسية مقارنة بالدول المغاربية.

ويرى البعض أن المحظرة تمكنت من دحض نظرية ابن خلدون التي ربطت بين التعليم والعمران، فقد كانت البادية موطن المحظرة حتى اليوم، ورغم ذلك استطاعت هذه الأخيرة تخريـج علماء جابوا أصقاع العالم بعلمهم الذي شمل كافة نواحي الثقافة العربية والإسلامية، واستطاعت نشر الدين والعلم في البوادي والصحاري القاحلة.

وقد أعجب الكثير من الباحثين بخصائص المحظرة وطبيعة الحياة فيها وآداب الدراسة وتقاليدها ومناهج الدراسة وكيفية تحصيل مواردها. ولا تزال المحظرة تستخدم اللوح الخشبي والحبر في المراحل الدراسية الأولى، كما تعتمد على أدوات بسيطة وكتب قديمة، أما موادها فتشمل القرآن وأصول الفقه وعلوم الحديث والبلاغة والفلسفة والتاريـخ والحساب.

وتم تكييف المحظرة لتناسب الظروف الاجتماعية والبيئية في الصحراء، وهو ما جعلها تستمر على مدى قرون. ورغم دعم وزارة التعليم لها تعتمد المحاظر بشكل رئيسي على التبرعات، حيث توجه أغلب أموال الزكاة في موريتانيا للمحاظر، خاصة التي تؤوي الطلاب وتتوفر على أعداد كبيرة من المدرسين من مختلف المستويات الدراسية. ويتميز أبناء المحظرة بالقدرة الفائقة على الحفظ والتذكر، بسبب اعتماد الشيوخ والمدرسين على أسلوب الاستظهار، حيث لا يتخرج الطالب إلا بعد حفظ أمهات المتون المعروفة في الثقافة العربية الإسلامية.